"تسليم نقدي تنظيري"

البعد الواقعي في التخيّر الشعري عند الجاحظ كتاب "البيان والتبيين" مثالاً

Realistic Dimension in Poetic Selection of Statement and Clarifications of AL-JAHIZ as a Nonpareil

أ.د. علي حداد حسين

العراق / جامعة بغداد

مركز إحياء التراث العلمي العربي

Dr. prof. Ali Haddad Hussein

Iraq / Baghdad university

Heritage revival center

alhaddad55@yahoo.com

تاريخ التسليم: ٣/ ٩/ ٢٠١٧

تاريخ القبول: ٢٥/ ١٢/ ٢٠١٧

خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي

Turnitin - passed research

الملخص

هذه قراءة في جانب من فكر الجاحظ وأدبه متجسداً في كتاب (البيان والتبيين) ، تلمسنا أن نوثق من بين محتواه مسألة بارزة فيما تحيل إليه من انشغالات الجاحظ ووجهته في التّخير والمعاينة، تلك هي رؤيته الواقعية، وتوظيفه للنص الشعري الذي ساوق بينه وما شغل به من وقائع وأخبار ومجادلات فكرية ومعرفية تضمنها كتابه هذا الذي لا ادعاء في القول أنه موسوعة من الرصد الثقافي والأدبي الذي تخيره وشغل بجمعه وتوثيقه.

لقد استوفى الشعر مجالاً رحباً في كتاب الجاحظ هذا فما من صفحة من صفحاته إلا واحتوت على بيت شعر إن لم نقل أبياتاً ، وما من حادثة أو أمر عنّ على بال الجاحظ أو دار في مخيلته إلا وكان الشعر مرادفه ومحل البرهنة عليه .

والشعر في كتاب البيان والتبيين يقف في خدمة الغرض أو المسالة التي يطرحها الجاحظ ويعالجها يستشهد به ويتخذه برهاناً على صواب ما يبديه من آراء وأفكار. ومن هذا المنطلق

فقد تجسد البعد الواقعي في الرؤية النقدية عنده عبر تمثلات كانت هي المرتكزات التي تمثلها في توثيق ما رصدته تأملاته الواعية من الفكر والاجتماع ، والمثاقفة الأدبية وقيم العصر وانشغالات أهله.

Abstract

Reading in the aspect of thought of AL-JAHIZ and his literature embodied in Statement and Clarifications is of impoertance to document its content as a prominent issue .while

Poetry has taken essentiality in his book as there is verse .Statement and Clarifications grows important . In this sense the realistic dimension of criticism vision was embodied at him though representations were the pillars which are represented in the documentation of his observant contemporaries of thought , society , literary education and values of the times and concerns of the intellectuals.

*** في البدء:**

يتشعب الحديث ـ حين يكون عن فكر أبي بحر الجاحظ وأدبه، وما أنجزه في كتبه ورسائله ـ ولا يكاد ينتهي، أو تحط به قراءة بل قراءات ، فمتسع ما لديه من كل علم وأفق مثاقفة يستدرج الرؤية إلى أكثر من مقاربة وتوجيه قرائي، من دون أن تجد أنك أشبعت مابين يديك تأملاً وفحصاً واستنطاقاً.

ويتداخل وعيه ، ومكونات تأسيسه المعرفي والثقافي مع مآلات النشأة والتكوين الإنساني، فتحيلك إلى استدعاء بعض تفصيلات حياته ، تلك التي اندست في مسارات شخصيته وأطّرتها بالذي قرّ لها أن تصير إليه وتنبني على وفقه، لتنتج ـ من هذا وذاك تلك الكينونة الفكرية الفذة، وهي تحيل معارفها إنتاجاً ثقافياً مشتجراً في انشغالاته، حتى لا يكاد يفوته أياً من آفاق المعرفة ومجالات الإخبار المتيقن عتها ، وهو ما تبدى في كتبه ورسائله التي تنهل منها الدراسات بالذي لا ينفد مدده.

وفي قراءتنا هذه فقد تخيرنا واحداً من كتبه هو (البيان والتبيين)[1]، تلمسنا أن نوثق من بين محتواه مسألة بارزة فيما تحيل إليه من انشغالات الجاحظ ووجهته في التّخير والمعاينة ، والتوجيه المخبر عن جملة من الرؤى التي نعتقد أن شخصية الجاحظ تمثلتها في معظم ما تخيرته ودونته ، تلك هي وجهة توظيفه للنص الشعري الذي ساوق بينه وبين ما شغل به من وقائع وأخبار ومجادلات فكرية ومعرفية تضمنها كتابه هذا الذي لا ادعاء في القول إنه موسوعة من الرصد الثقافي والأدبي الذي تخيره الجاحظ وشغل بجمعه وتوثيقه.

***التأسيس الثقافي لشخصية الجاحظ :**

تأثرت ثقافة الجاحظ ـ وهي تقدم منجزها المعرفي ـ ببعدين مهمين ، أولهما : البيئة الشعبية التي عاش فيها والوسط المادي الذي وجد نفسه ينتمي إليه، فقد ولد الجاحظ وعاش مراحل حياته الأولى فقيراً معدماً وذاق مرارة الجوع وآلام العوز وسوء الحال مثل غالبية أبناء بيئته[٢].

والجاحظ ابن وسطه الاجتماعي، وسليل البيئة الشعبية المشتجرة بالوقائع والمشكلات والهموم، والتنوع السلوكي اللافت لرغبة الرصد والتوجيه القرائي الذي أتقن الجاحظ صنعته وتفوق فيها على سواه[٣]، فكان لابد له أن يعاين وجود أولئك الناس البسطاء ويستفيض في استدعاء أخبارهم وأشعارهم ونوادرهم، ومن هنا وجدنا اهتمامه بتصوير ذلك الوسط الذي ينتمي إليه ومآلات تشخصه في صور ووقائع وأسماء تماهى مع وجودها من حوله، واستحضرها فيما رصده ودونه، واحداً من جوانب ما استدعاه في كتبه ورسائله، ومنها كتابه (البيان والتبيين).

وهناك لأجانب آخر كان له أثر واضح في ثقافة الجاحظ يتمثل في اتصاله بالمعتزلة[٤] وارتباطه بفكرهم ذي الوجهة المنطقية العقلية، الأمر الذي انعكس في كتاباته وفي آرائه ونظراته الفلسفية وفي طريقته في البحث والاستقصاء الذي لا يكاد يتخطى أياً ظاهرة، أو يستبعد الخوض فيها .

لقد كان الجاحظ معتزلياً أصيل التيقن من هذه الوجهة، يعتمد على العقل ويتخذه إماما في تفسير الظواهر، والنظر إلى القضايا الفقهية والمعرفية، ووقائع التاريخ وحركيته، واستجلاب العقل للنظر في مختلف الجوانب الذهنية والسلوكية الأخر .

وقد ترسخت آراؤه في الاعتزال وتبدت أكثر وضوحاً ودقة عنده، حتى أصبحت له فرقة من المعتزلة تدعى) الجاحظيةى (جارت المعتزلة في بعض المسائل، كنفي الصفات عن الخالق، ومسألة خلق القران. وانفردت بمسائل منها : إن المعارف كلها طباع وليس بشيء من ذلك من أفعال العباد، وليس للعباد كسب سوى الإرادة . ومن مسائلها أن أهل النار لا يخلدون فيها عذاباً بل يصيرون إلى طبيعة النار فهي تجذب أهلها إلى نفسها دون أن يدخل احد فيها [٥].

وقد التزم الجاحظ بأفكاره الاعتزالية وناقش ضمن هذا المنظار كثيراً من المسائل الواردة في كتابه (البيان والتبيين) .

*** البيان والتبيين، ووجهة التأليف:**

يعد كتاب الجاحظ (البيان والتبيين) من أهم ما يمكن للتراث الفكري والأدبي العربي أن يعتز به ـ ويضعه في مآل المراجعة والتقصي والدرس القرائي الجاد؛ فهو مصدر عظيم الفائدة لمن أراد الاطلاع على جوانب الإبداع العربي والآفاق العقلية العربية ومنجزها الثقافي متعدد الآفاق والتشكل، ولعل إشادة العلماء والأدباء والدارسين بهذا الكتاب ـ قديماً وحديثاً ـ من السعة والتواتر بحيث تصعب الإحاطة بمقولاتها عنه . ولنا هنا أن نستذكر ما أورده (ابن خلدون) في مقدمته عنه، حين قال: " سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن أربعة، هي : أدب الكاتب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لابي علي القالي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها" (٦).

تظهر في(البيان والتبيين)عبقرية الجاحظ وقدراته العلمية الكبيرة واتساع أفق ثقافته ، فهو عالم من علماء اللغة وأساليبها وتصاريفها، له آراؤه فيها كقوله :" وقد يستحب الناس ألفاظاً وغيرها أحق بذلك منها. ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر الجوع في القران إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة . وكذلك ذكر المطر لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين المطر وذكر الغيث "(٧).

وهو في بعض لمحاته المتأملة للنفس البشرية محلل للمشاعر الإنسانية ومتفهم لجوانب من مكنونها الشعوري اللاواعي ، حد يتيقن فيع أن يقول : " ولعمري إن

الناس إلى الكلام لأسرع لأن في أصل التركيب أن الحاجة إلى القول والعمل أكثر من الحاجة إلى ترك العمل والسكوت عن جميعه القول " [٨].

وقوله: " ولا يمكن تمام الفهم إلا مع تمام راحة البال " [٩]، ويقصد أن الفهم التام لأي مسألة أو أمر لا يحدث إلا حينما يكون البال خالياً من التفكير في شيء آخر ويدعم قوله هذا ببيت شعر لمجنون ليلى :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبي فارغاً فتمكنا[١٠]

وهو يعجب من حال طرفة بن العبد ومن عبد يغوث ، كيف أنهما واجها الموت وسمعا بإذنيهما أمر نهايتهما ولم يتلجلج لهما لسان بل قالا شعرا لا يقل إدلالاً على تمكنهما التعبيري عن باقي شعرهما وهما في حالات الأمن والطمأنينة، لقد قال عبد يغوث قصيدته التي مطلعها:

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا فما لكما في اللوم خير ولا ليا[١١]

كذلك نرى للجاحظ كثيراً من الآراء المتعلقة بِنَواحٍ عقائدية وفكرية وسلوكية، ومجادلات ذات طبيعة تاريخية أو اجتماعية أو أدبية، وما إلى ذلك مما يزخر به هذا الكتاب الذي مثل ـ مع كتاب الحيوان ـ خلاصة الجهد التأليفي المعرفي الذي تجلت فيه مقدرة الجاحظ الثقافية الثّرة.

وبمجاورة تلك المعارف الخصيبة يأخذ النقد الأدبي ـ ولاسيما نقد الشعر مساحة بيّنة، متداخلاً أحياناً مع الأخبار والوقائع وما يورده الجاحظ من قضايا كلامية وأفكار فلسفية ، في حين يستقل بنفسه في أحايين أُخر ، ولاسيما حينما يعالج بعض المسائل الخاصة بالشعر.

وأراء الجاحظ النقدية هذه توضح لنا بجلاء دال قدراته العلمية التي تستند على قاعدة واسعة هي ثقافته الموسوعية ومجالات اهتمامه المتعددة .

يحدد الجاحظ للناقد صفات متعددة يجب أن تكون فيه ، لعل أهمها عنده أن يكون ذلك الناقد متجرداً من التعصب ، بعيداً عن الهوى والميل ، ينظر إلى النص الذي أمامه بعين عقله لا بعاطفته وهواه « فإذا كان الحب يعمي عن المساوئ فالبغض يعمي عن الحقائق والمحاسن . وليس يعرف حقائق ومقادير المعاني ومحصول حدود لطائف الأمور إلا عالم حكيم أو معتدل الأخلاط عليم ، وإلا القوي المنة، الوثيق العقدة ، الذي لا يميل مع ما يستميل الجمهور الأعظم»[١٢].

أما آراؤه في الشعر ـ وما يتعلق بها من تصورات نقدية ـ فهو ما سنقف عنده في أثناء مقاربتنا للموضوعة التي هي غاية هذه القراءة .

*الشعر وطبائعه في البيان والتبيين:

١) استوفى الشعر مجالا رحباً في كتاب الجاحظ هذا؛ فما من صفحة من صفحاته إلا واحتوت على بيت شعر إن لم نقل أبياتاً ، وما من حادثة أو أمر عنّ على بال الجاحظ أو دار في مخيلته إلا وكان الشعر مرادفه ومحل البرهنة عليه .

والشعر في كتاب البيان والتبيين يقف في خدمة الغرض أو المسالة التي يطرحها الجاحظ ويعالجها يستشهد به ويتخذه برهاناً على صواب ما يبديه من آراء وأفكار، ففي كل أمر تطرق إليه لم يأل أن يورد في أثناء معالجته شعراً يوافي فكرته ويدلل على مراميه في التمثل الشعري[١٣]، وفي ذلك ما يؤشر مقدرة الجاحظ الثقافية واتساع

مخيلته وسعة إمكاناته في الحفظ والتذكير والاستعادة وهو جانب من جوانب عبقرية هذا الرجل العظيم المكانة.

هكذا ستراه حين يعرض لك قوله:" ولأن العرب تجعل الحديث والتبسط والتأنيس والتلقي بالبشر من حقوق القرى ومن تمام الإكرام وقالوا : تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة ، وإطالة الحديث عند المؤاكلة " [١٤] فإنه يدعم تلك الفكرة ، ويبرهن على تبنيهم لمنطوقها في شعرهم، فيورد ما ناف على أربع مقطوعات شعرية لعدد من الشعراء كلها تذهب إلى دعم مقولته[١٥].

وحين يرد على الشعوبية وما زعمت من أن العرب لا تقاتل بالليل يتخذ الشعر دليلاً فيقول : « والدليل على أنهم يقاتلون بالليل قول سعد بن مالك في قتل كعب بن مزيقيا الملك الغساني:

وليلة تبع وخميس سعد أتونا بعد ما نمنا دبيبا

فلم نهدأ لباسهم ولكن ركبنا حد كوكبهم ركوبا

بضرب تفلق الهامات منه وطعن يفصل الحلق الصليبا[١٦]

ولا يكتفي بهذه الأبيات الثلاثة بل يذكر بعدها أكثر من عشرة أبيات لخمسة شعراء تطرقت الى المسالة نفسها[١٧]. وهكذا سنجده، وفي أغلب المسائل التي يوردها فإنه يجعل الشعر مصاحباً لها وقائماً في ما يساوق الرؤية التي تحملها.

والذي يلاحظ في الشعر الذي أورده الجاحظ أنه لم يلتزم فيه طابعاً معيناً أو عصراً محدداً، فهو يروي الشعر القديم كما يروي الشعر المحدث، وهو يورد شعراً لشاعر عاش قبل الإسلام ويليه ما هو لشاعر يعاصره في زمانه. ولاشك في أن الذي

سوغ له ذلك ما قلناه من أنه جعل الشعر في خدمة الغرض الذي يتحدث فيه ولم يورده لذاته، ومن هنا فإننا نستطيع القول : إن أغراض الشعر الذي ورد في البيان والتبيين هي أغراض الكتاب نفسه.

لقد ازدحم الشعر في هذا الكتاب، وهو نتاج قرائح أجيال من الشعراء العرب على مختلف عصورهم التي عاشوها. وعلى وفق ذلك فهو يختلف في الجودة والفخامة والجزالة، وفي بساطة اللفظة وجمالها وقوة معانيها وقيمتها الفنية .

ولعل في عدد الشعراء الذين أورد الجاحظ شعرهم في كتابه هذا وكثرتهم ما يجعلنا نتساءل عن مقدار الشعر العربي الذي ضاع ولم يصل إلينا سواء أكان لهؤلاء الشعراء أم لغيرهم ؟

وفي الجانب الكمي فإن ما يغلب على الشعر الذي أورده أنه شعر مقاطع تتراوح بين البيتين والثلاثة عموماً ، وإن ورد أكثر من هذا ـ وهو في حالات محدودة ـ ولكننا لا نجد في هذا الكتاب قصيدة قال عنها الجاحظ أنها كاملة[١٨] .

لقد اتسمت تلك المقطوعات الشعرية ـ في الغالب عليها ـ بوضوح المعاني وسهولة التراكيب. ولعل هذا الشعر ـ لونسق على وفق أغراض بعينها ـ ورتب على أسس تعتمد المقاييس النقدية والبلاغية لخرجنا بكتاب يحتوي على أمثلة من الشعر العربي ذات قيمة معرفية وجمالية باذخة.

٢) يمكن لمقولات الجاحظ وأفكاره أن تندرج في أفقين : أحدهما (نظري) يتجه إلى ترسم مسار نظرية الشعر في النقد العربي القديم التي كان الجاحظ من علامات تأسيسها وترسيخها المهمة، والآخر(تطبيقي) يضعه الجاحظ في صميم

تمثله لممارسات ثقافية عملية ، ولاستدراج الوعي نحو تأكيد الرؤية وترسيخها بالذي يمكن لمنطوق المماثلة النصية الشعرية أن تعلن عنه وتوصله لمتلقيه.

ولنا أن نقف ـ في أول ما نقف عنده من تمثلات الجاحظ أفق التنظير عن الشعر في كتاب البيان والتبيين ـ عند تحديده لماهية الشعر الذي يتخذ فيه رؤية بينة التأكيد محددته، فهو لا يسمي كل شعر شعراً، بل هو عنده ما كان صادراً عن إحساس به وقصد إليه وخصوصية التعبير من خلاله « فإنك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم لوجدت مثل (مستفعلن فاعلن) كثيراً، وليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعراً. ولو أن رجلاً من الباعة صاح :

ـ من يشتري باذنجان

لقد كان تكلم بكلام في وزن (مستفعلن مفعولان) فكيف يكون هذا شعراً ، وصاحبه لم يقصد إلى الشعر »[١٩].

وكان الجاحظ قد تطرق إلى مسألة الشعر عند العرب وعند غيرهم من الأمم، فتبنى ـ بالأدلة والبراهين التي أوردها ـ القول خصوصية الشعر عندهم وتمايزه عما لدى الأمم الأخر، « فالفرق بين أشعارهم وبين الكلام الذي تسميه الفرس والروم شعراً، وكيف صار النسيب في أشعارهم والذي أدخلوه في غنائهم وفي ألحانهم إنما يقال على ألسنة نسائهم، وهذا لا يصاب في العرب إلا القليل اليسير. والعرب تقطع الألحان الموزونة على الأشعار الموزونة. والعجم تمط الألفاظ فتقبض وتبسط، حتى تدخل في وزن اللحن»[٢٠]. وعلى هذا فحين يقايس منجز العرب الشعري بما بين يديه من أشعار الأمم الأخر فإن الشعر عنده هو ما قالته العرب "لأن البديهة

مقصورة في قول الشعر على العرب دون غيرهم من الأمم وأنهم أفهم وأنطق الخلق . وأن لغتهم أوسع وألفاظهم أدل"[٢١]. وعندنا فلعل منطلق الجاحظ إلى هذه الرؤية ما كان قد شخصه في كتابه الحيوان عن خصوصية الشعر وما ينتابه عند الترجمة ، فعنده أن : " الشعر لا يستطاع أن يترجم ـ ولا يجوز عليه النقل، ومتى حوّل تقطّع نظمه وبطل وزنه ، وذهب حسنه ، وسقط موضع التعجب "[٢٢]. ولاشك في أن الجاحظ في هذا لا يكاد يضع مثاله سوى الشعر العربي.

وهو يؤمن بأهمية الشعر ومنزلته عند العرب وتفضيلهم له على النثر . وأن له أثراً كبيراً في توثيق عطاء أجيال من المبدعين العرب القدامى وخلوده " لأن الحفظ إليه أسرع ، والآذان إلى سماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت . وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره "[٢٣].

وستبدو واحدة من مسائل واقعية الجاحظ ومدركه في أن الحياة تأخذ سيرورة متغيرة في قيمها وتمثلاتها ، ومنها ما يمكن للسان أن يستدرجه من سياقات تعبير جديدة ، يندرج فيها ما لم يكن متداولاً ، مما يعده المختصون بعلوم اللغة خارج فصاحتها التي يؤصلونها في درسهم اللغوي . ومن هنا فهو لا يقف ذلك الموقف المتعصب الرافض الذي نجده عند الأصمعي أو عند عمرو بن عبيد وغيرهم من مسألة ورود كلمات غير عربية في الشعر[٢٤]، إذ يبدي الجاحظ نوعاً من الأريحية المتساهلة في هذا ، فقد روى في البيان كثيراً من الشعر الذي وردت فيه كلمات غير عربية ، وعلل ذلك بقوله : « إنما جازت هذه الألفاظ في صناعة الكلام حين عجزت الأسماء عن اتساع المعاني . وقد يتملح الأعرابي بأن يدخل في شعره شيئاً من كلام الفارسية ، كقول العماني (الراجز) للرشيد في قصيدته التي مدحه بها :

من يلقــه من بطل مسرند

في زغفــة محكمة بالسرد

يجــول بين رأسه و(الكرد)[٢٥]

وحين يريد الجاحظ أن يقول إن الشعراء مستويات ومراتب ـ بحسب مستوى الشعر الذي يضعونه بين يدي التلقي ـ فإنه يذهب إلى نقل ما يدعي أن العرب قد (راتبوهم) فيه وقالوه عنهم؛ فالشعراء عندهم طبقات ومراتب، أولهم (الفحل الخنذيذ) وهو التام، ودونه (المفلق)، ودون ذلك (الشاعر)، أما الرابع فهو(الشعرور)[٢٦]، لقد أورد الجاحظ ذلك من دون أن يعلق عليه أو يوضح حدود هذا الطبقية الشعرية، والأسس التي قامت عليها، كما لم نجده يستحضر أسماء شعرية يمكن لكل منها أن يندرج في واحدة من تلك الطبقات التي أحال المسمى والتقييم فيها إلى العرب أنفسهم، ولاشك في أن هذه الاستعادة (التوصيفية) لا تعني موقفاً تقيمياً يتبناه الجاحظ ويساير فيه سواه، لأنه سيكون في ذلك قد فارق قناعاته المنطقية التي تستعيد تمثل النصوص الشعرية من دون تمايز بين مستوياتها وتراتبية شعرائ ها.

ولا تفوت الجاحظ ملاحظة أن هناك تفاوتاً بين الشعراء في الإجادة بأغراض الشعر المختلفة، فمنهم من يحسن المديح ويعجز في الهجاء. ومنهم الحكيم في شعره أو المتغزل المجيد. والمسألة ـ طبقاً لرأيه ـ لا تتعدى طبيعة الإنسان واستعداده النفسي مع امتلاكه لقدرات ثقافية معينة؛ " فقد يكون الرجل له طبيعة في الحساب، وليس له طبيعة في الكلام . ويكون له طبيعة في التجارة ، وليس له طبيعة في الفلاحة . ويكون له طبع في الحداء أو في التعبير أو في القراءة بالألحان ، وليس له طبيعة في الغناء.

ويكون له طبع في تأليف الرسائل والخطب والأسجاع ولا يكون له طبع في قرض بيت شعر "[٢٧]. ويدعم هذه الرؤية بما كان عليه حال بعض أدباء عصره المهمين من مقدرة إتيان الشعر والإجادة في نظمه ، فقد « كان (عبد الحميد وابن المقفع)[٢٨] مع بلاغة أقلامهما وألسنتهما لا يستطيعان من الشعر إلا ما لا يذكر مثله . وقيل لابن المقفع في ذلك فقال: الذي أرضاه لا يجيئني والذي يجيئني لا أرضاه»[٢٩].

ويتسق الأمر ذاته ، حين تأمله بعض تجارب الشعراء وإجادتهم لغرض شعري عن سواه فـ " هذا الفرزدق كان مشتهراً بالنساء ، وكان زير غوان ، وهو في ذلك ليس له بيت واحد في النسيب مذكور، مع حسده لجرير ، وجرير عفيف لم يعشق امرأة قط ، وهو مع ذلك أغزل الناس شعراً"[٣٠].

وإذا كانت تلك بعض آراء الجاحظ التي تضمنها البيان والتبيين في رؤية الشعر ونقده فهناك غيرها كثير لم نتطرق إليه ، إما لأنها أحكام عامة يساير فيها السابقين له من علماء اللغة والأدب ، أو لأنها آراء تتسم بالحكم الذوقي المبتسر ، كقوله عن هذا البيت :

أعامـر لا آلـوك إلا مهندا وجلـد أبي عجل وثيق القبائل[٣١]

حيث قال عنه إنه " أبعد معنى وأقل لفظاً "[٣٢]. وهكذا في غيره من أحكامه الموجزة. فقد يقول "وهذا من قديم الشعر"[٣٣]. أو يقول " وهذا الشعر من أشعار الحفظ والمذاكرة" [٣٤]، أو " وهذا من جيد الشعر"[٣٥] . وربما ذهب أحياناً يشرح المفردات ويوضح معاني بعض الأبيات الشعرية التي يجدها صعبة الفهم[٣٦].

أما الأحكام النقدية التي شارك فيها سابقيه أو معاصريه من العلماء فهي كثيرة، منها ـ على سبيل التمثيل ـ موقف النبي الأكرم محمد ﷺ من الشعر وتشجيعه لبعض الشعراء ورعايته لهم[٣٧] . ومنها موقف عمر بن الخطاب من الشعر ، إذ ذكر الجاحظ مسالة اتخاذه لحسان بن ثابت حكماً في قول الحطيئة يهجو (الزبرقان بن بدر) :

دع المكـــارم لا ترحل لبغيتها واقعـد فإنك أنت الطاعم الكاسي [٣٨]

* الجاحظ .. البعد الواقعي في الرؤية النقدية :

لاحظ بعض الباحثين[٣٩] أن المنجز النقدي للقرن الثالث الهجري ـ الذي عاش الجاحظ فيه ـ شهد سيطرة علماء اللغة على سوق الشعر، وهم بطبيعتهم المحافظة التي تعتمد (النقل) ومتابعة المثال اللغوي المتأصل في بيئته، يضفون كامل اهتمامهم على علوم اللغة من نحو وفقه ولهجات. وهم ـ حين يأتون الشعر ـ يحصرون جل اهتمامهم بالشعر العربي القديم وبنماذجه الفخمة المليئة بما يؤيد استشهاداتهم اللغوية أو النحوية، التي ربما ورد فيها من حوشي اللفظ وصعبه الذي يفضلونه ويقفون طويلاً عنده .

لقد تبنى أولئك اللغويون ونقاد الشعر موقفاً متعصباً من الشعراء المحدثين ، ومن شعرهم، حتى ليقول الجاحظ عنهم:" لم أرَ غاية النحويين إلا كل شعر فيه إغراب ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب "[٤٠].

ويمكن التدليل على ذلك بجملة من آرائهم ، فقد كان (أبو عمرو بن العلاء)[٤١] يختم الشعر بذي الرمة والرجزية؛ أما الشعراء المحدثين فهم عنده " كلّ على غيرهم ، إن قالوا حسناً فقد سبقوا إليه وإن قالوا قبيحاً فمن عندهم "[٤٢].

أما الأصمعي فحين أنشده (إبراهيم بن اسحق الموصلي)[٤٣] بعض شعره من دون أن يخبره أنه استحسنه وأعجب به. ولكن حين قال له بعد ذلك أنه من شعره صاح به غاضباً " لقد أفسدت الشعر "[٤٤] .

ولعل أوضح صورة لما وصله تعصب اللغويين والنحاة مافعله (خلف الأحمر)[٤٥] مع الشاعر (محمد بن مناذر)[٤٦] حين اجتمعا في مأدبة فقال له ابن مناذر : " يا أبا محرز إن يكن النابغة وامرؤ القيس وزهير قد ماتوا فهذه أشعارهم مخلدة فقس شعري إلى شعرهم واحكم فيه بالحق " فما كان من خلف إلا أن غضب وأخذ إناء مملوء مرقاً ، رمى به ابن مناذر ، ثم نهض تاركاً المأدبة وأهلها [٤٧].

لقد تحكمت آراء أولئك العلماء بمسار الشعرية العربية في ذلك القرن " فقد أصبح اللغويون سدنة الشعر وحراسه ، فمن نوهوا به طار اسمه، ومن لوحوا في وجهه غدا نسياً منسياً "[٤٨]، حتى ليقول الخليل بن أحمد الفراهيدي مخاطباً شعراء عصره: " إنما أنتم معشر الشعراء تبع لي وأنا سكان السفينة ، إن قرضتكم ورضيت قولكم نفقتم وإلا كسدتم"[٤٩].

وفي هذا يقول الجاحظ : " لقد أدركت رواة المسجدين والمربدين ومن لم يرو أشعار المجانين ولصوص الأعراب ونسيب الأعراب والرجاز الأعرابية القصار وأشعار اليهود والأشعار المنصفة والفقر والنتف من كل شيء "[٥٠].

هذا التوجه الجديد إلى الشعر وقبوله ـ من أيما مصدر أنتجه ـ هو ما سيتبناه الجاحظ ، ليمسي نهجاً مغايراً تمثله البصرة بذوقها الأدبي الجديد، وفرض نفسه فيها بعد مدرسة الأصمعي وأصحابه من علماء اللغة والنحو ، ولعله جاء متأثراً بأفكار المعتزلة وآرائهم وبما ساد البصرة من أوضاع اجتماعية كان فيها الأثر للطبقات الفقيرة الدور في أحداث ذلك العصر.

لقد أبدى الجاحظ موقفاً جديداً مغايراً لموقف السابقين له من العلماء ورجال الكلمة، وتمثل هذا الأمر بما اختطه من اهتمام بالشعراء المحدثين عامة ،وبالمغمورين والمقلين منهم على نحو خاص ، فهو يروي أشعارهم، ويورد أخبارهم، ويتحدث عنهم، ويستعيد شعرهم بمقادير تكاد تزيد عما يرويه لشعراء عصر ما قبل الإسلام والعصر الإسلامي . فهو ـ على سبيل التمثيل ـ في الوقت الذي ذكر فيه (امرأ القيس) ست مرات في البيان والتبيين ذكر الشاعر(العتابي)[٥١] ثلاث عشرة مرة، وذكر (النابغة الذبياني) ثلاث مرات ، في حين ذكر (محمد بن يسير)[٥٢] واستشهد بآرائه أكثر من عشر مرات، لتتجلى حقيقة أن الجاحظ لا ينظر إلى اسم الشاعر والعصر الذي عاش فيه بمقدار نظرته الى الشعر الذي يجب ـ طبقاً لرؤيته ـ أن يكون " متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فيعلم بذلك أنه أفرغ إفراغً جيداً ، وسبك سبكاً واحداً ، فهو يجري على اللسان كما يجري على الدهان "[٥٣] .

لعل الرؤية ذات النزعة الشعبية الواقعية من أهم التكشفات الواضحة فيما أورده الجاحظ من تصورات وآراء تخص الشعر والشعراء في كتابه هذا ، فقد كان قريبا جدا من مجتمعه، ومن الناس في أدنى مستويات عيشهم . وكان قادراً على ملاحظة أساليب حياتهم وطرح مشاعرهم والتعبير عن معاناتهم .

لقد كان الجاحظ بحق من بين أوائل العلماء الذين قاربوا الصورة الاجتماعية الشعبية وشغلوا بالكشف والتنويه ببساطتها وواقعيتها، فهو "ليس رجل الخيال وليس رجل العاطفة التي تستبد بجميع كيانه ،إنما هو رجل العقل والجدل يتطلب الحقيقة بكل قواه ويبحث طويلاً عنها "[٥٤]، ويضع يده عليها أينما تبدت له .

كان الجاحظ وثيق الصلة بمجتمعه، وقريباً من نبضه اليومي، ولذلك فقد كان معبراً عن هموم هذا المجتمع ومنشداً لما يجري فيه، بعيداً عن المبالغة أو التصوير المثالي . ولعل مرد هذا إلى بيئة البصرة التي عاش الجاحظ فيها، ففي الوقت الذي كانت فيه الروح الارستقراطية المترفة هي الغالبة على بيئة بغداد، لتحكّم الطبقة السياسية المترفة، وما فرضه ذلك من مظاهر اجتماعية انعكست على الأدب عموماً ـ والشعر على نحو خاص ـ كانت الروح الاجتماعية الشعبية هي الغالبة على بيئة البصرة. وكانت الصلة وثيقة بين الحياة الشعبية وبين العطاء الشعري الذي ساد في تلك المدينة. وبسبب هذه الصلة كان أكثر شعراء البصرة وأدبائها ـ آنذاك ـ يخرجون من بين طبقات الشعب التي تعيش كفاف قوتها، فقد كان الجاحظ ابن عائلة تبيع السمك والخبز هناك، كما أسلفنا، وكان (بشار بن برد) ابن رجل يشتغل طياناً، أما (أبو نواس) فقد ذكر أن والده كان حائكاً[٥٥].

وقد تبدت فاعلية تلك الروح الشعبية جلية في أن كثيرا من شعراء البصرة في ذلك العصر يخرجون على الأصول التقليدية للشعر، أو ما اصطلح عليه بـ (عمود الشعر)[٥٦] الذي غابت عندهم بعض مواضعاته ، سواء أكان ذلك في منطلقات الصياغة الشعرية وموضوعاتها ، أم التخير الذاتي المتحرر من قيود الصنعة الشعرية الصارمة .نجد ذلك ـ أكثر ما نجده ـ عند (أبي نؤاس) و(أبان اللاحقي)[٥٧] و(محمد

بن يسير) و(أبي يعقوب الخريمي)[٥٨] وسواهم من الشعراء الذين ذكرهم الجاحظ والذين اتصلوا بالحياة الشعبية اتصالاً وثيقاً[٥٩].

لقد عدّ خروج أولئك الشعراء على الأصول التقليدية للشعر استجابة للروح الشعبية ومجاراة لها وتأثراً بأساليبها ولذلك كان هذا الشعر في وقته محط إعجاب الفئات العامة من الناس الذين وجدوا في هذا الشعر ما يؤشر وجودهم وينتمي في بعض انشغالاته إليهم.

إن الجاحظ ـ وفي الوقت الذي يروي فيه أخبار الخلفاء والأمراء والقادة ، وأخبار القضاة والعلماء والمتنفذين ـ يبقى أميناً لأصل انتمائه البيئي بما يتكافأ فيه عنده ذلك الطابع الرسمي النخبوي مع الطابع الشعبي الذي فاق الأول مساحة استدعاء وإشارات تمثل .

اتخذت هذه الروح الاجتماعية الشعبية والواقعية في رصدها مظاهر عديدة من التجلي في الشعر الذي أورده الجاحظ . منها ما رواه من أخبار وأشعار لأناس مكانهم في السلم الاجتماعي عند ما تنتمي إليه الغالبية من أبناء المجتمع ، مثلما روى لسواهم ممن ليس لهم ثمة نصيب كبير من الشهرة ـ أولئك الذين سترد أسماؤهم في الملحق الذي وضعناه في آخر هذه القراءة .

وربما أورد الجاحظ بعض حكايات تلك البيئة الشعبية التي تصور قضية اجتماعية مقرونة بما قيل فيها من شعر ، كحكاية (أبي رمادة) الذي طلق زوجته حين وجدها لثغاء وخاف أن تنجب له ولداً يكون ألثغ مثلها ، فقال :

لثغاء تأتي بحفيس الثغ تميس في العوشي والمصبغ [٦٠] .

وحكاية (أبي حمزة الضبي) الذي هجر زوجته لأنها لم تنجب له ذكراً [٦١] .

ومن مظاهرها ما أورده من شعر لكثير من النسوة ، سواء الشاعرات منهن أو غير الشاعرات [٦٢].

ومن مظاهرها عنده أن كثير من الشعراء الذين ذكر أخبارهم وأشعارهم كانوا يلقبون بألقاب تدل على بعض العيوب الخلقية كالأعرج والأعمى والأعور، أولئك الذين سيخصهم لاحقاً بواحد من كتبه[٦٣] . وهو لم يتردد أن يروي عن أشخاص ذوي سيرة سيئة – كـ (إبراهيم بن هاني) الذي قال عنه الجاحظ نفسه " إنه ماجن خليع كثير العبث "[٦٤]. وسنجده لا يميز بين من يروي لهم ، فقد أورد أشعاراً للطوائف غير المسلمة [٦٥]، أو أشعاراً لبعض العبيد [٦٦]، ولبعض اللصوص[٦٧]، بل لقد وصلت بالجاحظ شعبيته وواقعيته حداً أن روى لامرأة مجنونة[٦٨]. وعلى ذكر الجنون والمجانين فإن الجاحظ تحدث عنهم كثيراً ، وأفرد لبعض مشاهيرهم ـ في زمانه ـ صفحات من كتابه ، ذكر فيها طرائفهم ونتفاً من أشعارهم ، فمنهم (جعيفران) [٦٩]، ومنهم (أبو يس الحاسب) [٧٠].

ولسوف يستدرجنا أمر النزعة الشعبية الواقعية عند الجاحظ إلى أن نستعيد بعض آرائه خارج الشعر، لنرى دعوته إلى أنْ يُذكر الحديث أو النادرة باللحن الذي وردا فيه: "فإذا سمعت بنادرة من نوادر العوام وملحة من ملح الحشوة والطغام فإياك أن تستعمل فيها الإعراب أو تتخير لها لفظاً حسناً أو تجعل لها من فيك مخرجا فان ذلك يفسد الإمتاع بها ويخرجها من صورتها "[٧١] .

وبإزاء ذلك فهو يدعو إلى مراعاة واقع الحال "فلكل مقام مقال وسخيف الألفاظ موافق لسخيف المعاني وقد يكون السخيف مكانه أمتع من اللفظ الشريف . وقد يحتاج إلى اللفظ السخيف في بعض المواضع . وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزيل الفخم من الألفاظ والشريف الكريم من المعاني "[٧٢].

الخاتمة

١) يخرج من يتفحص الشعر الذي أورده الجاحظ في (البيان والتبيين) بحصيلة من الملاحظات منها :

ـ إن كثيرًا من الشعر الذي أورده غير منسوب لقائل معين ويكتفي الجاحظ عند ذكره بأن يقول: " قال الشاعر"[٧٣]، أو: " قال آخر أو الآخر"[٧٤] أو ينسبه إلى رجل من قبيلة معينة فيقول: " قال الحارثي" أو: " قال الأسدي " أو: " قال الهذلي" [٧٥]، أو ينسبه إلى مجموعة من الإخوة أو الأخوات لا نعرف أيهم القائل[٧٦]. وكما ينسب الشعر إلى رجل من قبيلة من دون أن يحدد لنا اسمه فقد ينسبه إلى امرأة من هذه القبيلة أو تلك أيضاً[٧٧].

ـ يورد بعض الأبيات أكثر من مرة مع اختلاف في بعض ألفاظها أو في ترتيبها أو ترتيب أشطرها من دون أن يراعي ذلك أو يبرره [٧٨].

ـ ربما نسب الجاحظ شعراً لغير قائله ، فعنده أن البيتين الآتيين :

أتانا ولم يعدله سحبان وائل بياناً وعلماً بالذي هو قائل

فما زال عنه اللّقم حتى كأنه من العي لما أن تكلم باقل

هما لـ (حميد بن ثور الهلالي) [٧٩] وهما لـ (حميد الأرقط) وهو من شعراء الدولة الأموية كما ورد في(لسان العرب) [٨٠] .

ونسب شطر البيت (وخناذيد خصية وفحولا) للبرجمي[٨١]، وهما (لخفاف بن عبد قيس) كما ورد في (لسان العرب) أيضاً [٨٢].

وذكر البيت :

وإن عناء أن تفهم جاهلاً ويحسب جهلاً أنه منك أفهم

ولم ينسبه لأحد بل أورد قبله عبارة: قال الآخر[٨٣]، والبيت لـ (صالح بن عبد القدوس) كما ذكره هو في موضع آخر[٨٤]. ومثله قوله عن البيت الآتي:

تعزيت عن أوفى بغيلان بعده عزاء وجفن الغين بالماء مترع

أنه لشاعر[٨٥] ، وكان قد نسبه في الحيوان لأخت ذي الرمة[٨٦].

ومثل هذا كثير، فضلاً عن الإعادة والتكرار في ما يرويه من أشعار وأخبار وتلك سمة تدوين غالبة في (البيان والتبيين) .

وتبقى هذه الملاحظات ـ وربما عنّ لسوانا غيرها ـ بسيطة ،لا تنال من قيمة هذا الكتاب وأهميته التي أكدته سفراً معرفياً ومرجعاً في الفكر والثقافة والاجتماع والأدب تبيّن فيه اتساع ما يمتلكه الجاحظ من ثقافة موسوعية لاتجارى.

٢) تجسدت واقعية الجاحظ في كتابه هذا عبر انشغالات كانت هي المرتكزات التي تمثلها في توثيق ما رصدته تأملاته الواعية من الفكر والاجتماع ، والمثاقفة الأدبية وقيم العصر وانشغالات أهله، وجماليات التخيّر والاستقصاء، والصياغة الأدبية المتميزة. وكأن الجاحظ ـ من خلال ذلك كله ـ كان معنياً « بحكاية عصره وتمثيله تمثيلاً دقيقاً»[٨٧]، حتى لتعد مؤلفاته وثائق ذات وجهة تاريخية وثقافية و (أنثربولوجية) لاغنى عنها في الشأن الذي رصدته وتناولته.

ومن بين كثير من كشوفات وعيه وذائقته المخبرة عن المترسخ النسقي العميق في ذاته تبرز بصريته فاعلية تمثل واستعادة لافتة فيما دوّنه ووثّقه . فلقد حمل الجاحظ (بصريته) معه إلى بغداد ثم (سرّ من رأى) أو سامراء. وهناك وفي أماكن إقامته الجديدة ـ في ظل الخلفاء والوزراء وذوي الشأن والسلطان ، وعالمهم المختلف كلياً عما كان عليه التأسيس الأول لانتمائه الاجتماعي ـ راح الجاحظ يستعيد تلك النزعة المندسة في لاوعيه ، من خلال الوقائع والشخصيات والأسماء والمواقف والحكايات ذات المصدر (البصري) الأثير عنده ، وبما يصنع مشهداً بسمات اجتماعية وفكرية دالة على بيئة تلك المدينة ومن تعرفه الجاحظ أو عايشه من علمائها وفقهائها وشعرائها، ومن استوقفته أخبارهم من فئاتها الاجتماعية المختلفة ، ليضع ذلك ممارسات ثقافية بارزة الحضور في كتبه ورسائله ، ومنها كتابه الذي قرأناه (البيان والتبيين) الذي كانت (البصرة) أكثر مدينة تردد اسمها في صفحاته ، متساوقاً مع إشارات الجاحظ التي كانت تترى عن كل ماله هوية بصرية بدت أثيرة الاستحضارعنده .

يبقى أخيراً أن نقول:

إن في سعة ما ذكره الجاحظ وضخامة المسائل التي عالجها وكثرة الشعر الذي أورده ما يجعل الباحث والقارىء يقفان بتبجيل وإعجاب كبيرين لهذا الرجل الذي أضاء بعطائه غير المحدود آفاق المعرفة الإنسانية بشتى أبوابها ومجالاتها .

* * *

الهوامش

١- اعتمدنا الطبعة الرابعة من النسخة التي حققها الأستاذ (عبد السلام محمد هارون) وصدرت عن مكتبة الخانجي بالقاهرة عام ١٩٧٠م .

٢- عن نشأة الجاحظ ينظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي،١٦٧٤. الفهرست ،ابن النديم،١ / ١٧٥، نزهة الأنبا في طبقات الأدبا، ابن الأنباري، ص٢٥٤. الأمالي، للشريف المرتضى،١/ ١٩٤.

٣- ينظر: الفهرست، ص ١٦٩، معجم الأدباء،١٦/ ٧٥.

٤- عن المعتزلة ينظر: فرق وطبقات المعتزلة للقاضي عبد الجبار، والملل والنحل للشهرستاني، وباب ذكر المعتزلة للبلخي، والفرق بين الفرق، لأبي منصور البغدادي ـ ومذاهب الإسلاميين لعبد الرحمن بدوي.

٥- عن فكر الجاحظ الاعتزالي ينظر: الفرق بين الفرق ، ص١٦٠ ، ونزهة الألبا ،ص٢٥٤.

٦- المقدمة، ابن خلدون، ص٨٠٥.

٧- البيان والتبيين، ١/ ١٤٧.

٨- المصدر نفسه .

٩- المصدر نفسه ،١/ ١٠ .

١٠- المصدر نفسه ،٣/ ١٩.

١١- المصدر نفسه ،١/ ٢٥ .

١٢- المصدر نفسه ،٣/ ٤٠١.

١٣- يقول إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص٩٤:إن الجاحظ «استغل الشعر مصدراً لمعارفه العامة ، إذ استمد منه تصوره للخطابة ، وبعض معلوماته عن الحيوان، بل إنه جاء بأشعار وشرحها ، لأن شرحها يعينه على استخراج ما فيها من معرفة علمية

– ويرى شوقي ضيف، الفن ومذاهبه ، ص١٥٦أن مناط هذا الأمر وجهته الاعتزالية، إذ : « كان المعتزلة كثيري الاستشهاد بالشعر، ولعل الجاحظ قد سلك سبيل الاعتزال في كثرة استشهاده به في كتبه « .

١٤– البيان والتبيين ،١/ ٢٠٠.

١٥– المصدر نفسه .

١٦– المصدر نفسه ،١/ ٦٣ .

١٧– المصدر نفسه ،١/ ٢١٨ .

١٨– لعل أكثر أبيات وردت لشاعر هي « لصفوان الأنصاري « يرد فيها على (بشار بن برد) لما فضل إبليس على الإنسان، وهي أكثر من ثلاثين بيتاً . (المصدر نفسه ،١/ ١٤١).

١٩– المصدر نفسه ،١/ ٢٠٠.

٢٠– المصدر نفسه.

٢١– المصدر نفسه.

٢٢– الحيوان، ١/ ٧٤. ويرى الدكتور (داود سلّوم)، النقد المنهجي عند الجاحظ، ص٨: " إن الجاحظ في الواقع كان يعرف أن هناك عند الأمم الأخر شعراً، ولكنه لم يشأ أن يسميه شعراً " ومرده على ما رآه الباحث: "هو هذا الاختلاف بين الوزن الشعري واللفظة الشعرية اللذين يساوى بينهما بإخراج الألفاظ إخراجاً خاصاً حتى تتلاءم والوزن ".

٢٣– البيان والتبيين،١/ ٦٣.

٢٤– ينظر: إياد عبد المجيد، الأصمعي وجهوده في رواية الشعر العربي، ص٤٣ وما بعدها.

٢٥– المصدر نفسه ،١/ ١٤١.

٢٦– المصدر نفسه ،٢/ ٢١٨.

٢٧– المصدر نفسه ،١/ ٢٠٨.

٢٨- عن (عبد الحميد الكاتب) ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ، ١٢/ ٣٠٧، والفهرست لابن النديم،١٧٠.أما (ابن المقفع) فينظر: الفهرست ،١٧٢، والوزراء والكتاب للجهشياري ، ص١٠٩.

٢٩- البيان والتبيين ،١/ ٢٠٨.

٣٠- المصدر نفسه.

٣١- المصدر نفسه،١/ ٢٢٩.

٣٢- المصدر نفسه.

٣٣- المصدر نفسه،٢/ ٣٤١.

٣٤- المصدر نفسه ،١/ ٣٩٦.

٣٥- المصدر نفسه ،٢/ ٢٢٢.

٣٦- ينظر على سبيل التمثيل : ١/ ١٦،١٢، ٥٥، ١١٠، ١٣٤، ١٥٢، ١٧٦، ٢/ ٤٣.

٣٧- المصدر نفسه، ٤/ ٤٤،٤٣.

٣٨- المصدر نفسه، ١/ ٢٤٠.

٣٩- ينظر : تاريخ النقد الأدبي ، طه احمد ، ص٤١٢.

٤٠- البيان والتبيين ،٤/ ٣٤. ويقول الجاحظ ، الحيوان ،٢/ ١٣٠ : " وقد رأيت أناساً يبهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها، ولم أر ذلك قط إلا في راوية للشعر غير بصير بجوهر ما يروي، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان وفي أي زمان كان"؛ كما يورد في كتابه (البخلاء)،١/ ٧٨ قوله : " وإن وجدتم في هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير معرب، أو لفظاً معدولاً عن جهته فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يبغض هذا الباب ويخرجه عن حده ".

٤١- ينظر : البيان والتبيين ،١/ ١٢٨، و٣/ ٣٠٣،و٤/ ٩٤، ٩٩.

٤٢- الأغاني، أبو فرج الأصفهاني،١٦/ ١٠٩.

٤٣- ينظر المصدر نفسه.

٤٤- المصدر نفسه ،٥/ ٣١٨.

٤٥- ينظر: البيان والتبيين، ١/ ١٢٩.

٤٦- من أهل البصرة، كان ناسكاً عالماً في اللغة والكلام ثم تبدلت أحواله فأصبح شاعراً متهتكاً، عاصر عدداً من علماء البصرة وشعرائها. تنظر أخباره في : الأغاني ،١٧/ ٩ومابعدها.

٤٧- تاريخ النقد الأدبي ، طه أحمد ، ص٤١٥.

٤٨- المصدر نفسه.

٤٩- الأغاني ، ١٦/ ١٧.

٥٠- البيان والتبيين ، ٤/ ٢٤.

٥١- من الشعراء الذين وفدوا إلى بغداد ، وكان قد جال في كثير من المدن، ولاسيما بلاد فارس التي أتقن لغة أهلها الفهلوية . وكان ممن انقطع إلى البرامكة. تنظر ترجمته في: الأغاني، ١٣/ ١٠٩، وطبقات الشعراء لابن المعتز، ص٢٦١، والشعر والشعراء لابن قتيبة، ص٨٣٩، والحيوان للجاحظ ،٢/ ٦٢. أما في البيان والتبيين فينظر:١/ ١١٥،٥٠ ،١٢٠ ،١٥٤، ١٩٧، ٢٢٠، و :٢/ ٣٣٣،١٤١، و٣/ ٤٠ ،٣٥٣ ،و٤/ ٥٦.

٥٢- ويلقب بـ (الرياشي) من شعراء البصرة الذين لم يفارقوها. ذكر أنه شاعر مقل ، لم يمدح في شعره ، بل كان ماجناً هجاء . تنظر أحباره في الأغاني ، ١٢/ ١٢٤ ومابعدها. أما في البيان والتبيين فينظر: ١/ ٦٥، ١٢١، ١٩٨ و٢/ ٣٦٠ و٣/ ٧٢ و١١١ ،١٧٤، ١٧٩ ،٢٠٩ ، ٢٣٠، ٣٥١ ، ٣٣٣.

٥٣- البيان والتبيين ،١/ ٨٣.

٥٤- تاريخ الأدب العربي ، حنا الفاخوري ، ص٥٦٥.

٥٥- يقول الجاحظ، رسالة التربيع والتدوير، ص٨٦: « ولعمري إن العيون لتخطيء، وإن الحواس لتكذب، وما الحكم القاطع إلا للذهن، والاستبانة الصحيحة إلا للعقل «

٥٦- حول (عمود الشعر) ينظر: المرزوقي، شرح ديوان الحماسة (المقدمة) .

٥٧- هو (أبان بن عبد الحميد اللاحقي) ذكر أنه من موالي البصرة ، وبها ولد ونشأ. كان من أصحاب اللهو والمجون .اتهم بالزندقة وهي تهمة لم يدفعها الجاحظ ـ حين ذكر أخباره وأشعاره ـ عنه .كان مقرباً من البرامكة ، وقد أطال مدحهم ، فقلدوه ديوان الشعر ، فكان الشعراء يرفعون إليه قصائدهم في البرامكة : تهاجى مع أبي نواس قي قصائد بينهما . وهو من نظم كتاب (كليلة

ودمنة) شعراً. ليشرع بذلك باباً واسعاً للشعر التعليمي. ينظر في ترجمته: الأغاني ٢٠/ ٧٣، وطبقات الشعراء لابن المعتز، ص٢٠٢، والحيوان للجاحظ ،٤/ ٤٧ وما بعدها. أما في البيان والتبيين فينظر:١/ ٥١.

٥٨- من الشعراء الذين وفدوا إلى بغداد، وتقربوا إلى أولي الشأن فيها. ينظر في ترجمته: ابن المعتز، طبقات الشعراء ،ص٢٩٣، والشعر والشعراء لابن قتيبة، ص ٨٢٩. أما في البيان والتبيين فتنظر الإشارات إليه في :١/ ١٣١،١١٧،١١٥،١١١، ٢٠٩، ٢٢٤،٣٨١، ٤٠٦، و:٢/ ٧٣، ٣٥٢، ٣٥٦ ،و: ٣/ ١٦٢، ٣٢٠، ٣٢٥، ٣٥٢.

٥٩- وفي هذا يقول الدكتور شوقي ضيف،تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني،ص٤٣٤: « إن الشعر العباسي كان يصدر في جمهوره عن روح الشعب، فقد كانت كثرة الشعراء من الطبقة العامة، وكانوا يحملون في صدورهم أحاسيسها ومشاعرها».

٦٠- المصدر نفسه،١/ ١٨٦.

٦١- المصدر نفسه ،٣/ ٢٣٢.

٦٢- ينظر: المصدر نفسه،١/ ١٨٠، ١٨٥، ٢/ ٢٠٢، ٣،٢٥٧/ ٢٥٧، ٤/ ٤٤.

٦٣- ينظر: كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨٢م .

٦٤- ينظر : البيان والتبيين ،١/ ٩٣ ومابعدها.

٦٥- ينظر : المصدر نفسه ،١/ ٢١٣، ٢/ ٢٣٢، ٣٠٨، ٣٣٩ .

٦٦- ينظر : المصدر نفسه ،٢/ ٢٥٣.

٦٧- ينظر : المصدر نفسه ،٤/ ٦٢.

٦٨- ينظر: المصدر نفسه ،٢/ ٢٣١.

٦٩- ينظر: المصدر نفسه.

٧٠- كان يجيد قول الشعر. ومن شعره الذي ذكره الجاحظ ما قاله حين أعطاه رجل درهما وقال له: قل شعراً على حرف الجيم فقال :

عـادني الهم فاخـــتلج   كـــل هم الى فـــرج

سل عنك الهـــــموم بالــكاس والراح تنفرج

ينظر :البيان والتبيين ،٢/ ٢٢٧.

يقول عنه الجاحظ إنه كان مجنوناً قد ذهب بسبب تفكيره بمسألة لم يذكرها ، فلما جن كان يهذي أنه سيصير ملكاً. وكان بعض الشعراء ، كأبي نواس والرقاشي يقولون شعراً على لسانه ، ويرونه له حتى إذا حفظه لم يشك أنه هو الذي قاله وقد ذكر الجاحظ له عدة أبيات. ينظر:٢/ ٢٢٨.

٧١- المصدر نفسه ،٢/ ١٤٥. وكان أورد الرؤية ذاتها في كتابه (الحيوان) فقال، ١/ ٢٨٧ "إن الإعراب يفسد نوادر المولدين، كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب ، لأن سامع ذلك الكلام إنما أعجبته تلك الصورة وذلك المخرج وتلك اللغة وتلك العادة ، فإذا دخّلت على هذا الأمر ـ الذي إنما أضحكك بسخفه، وبعض كلام العجمة التي فيه ـ حروف الإعراب والتحقيق والتخفيف والتثقيل وحولته إلى صورة ألفاظ الأعراب والفصحاء، وأهل المروءة والنجابة، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه وتبدلت صورته ".

٧٢- المصدر نفسه.

٧٣- ينظر: على سبيل التمثيل : المصدر نفسه ،١/ ٣٠، ٩٤، ١٥٢.

٧٤- ينظر : على سبيل التمثيل : المصدر نفسه ،١/ ٥، ١٠ ، ٧٨، ١٥١،و:٢/ ٨٩، ١٨٥.

٧٥- ينظر : على سبيل التمثيل : المصدر نفسه ،١/ ٣، ٣٤، و:٢/ ٧٣، ٧٦، ٢١٨.

٧٦- ينظر: المصدر نفسه ،١/ ١٥١: قوله : « قال بعض ولد العباس بن مرداس». و١/ ٢١٦، قوله : " قالت أخت يزيد بن الطثرية ".

٧٧- ينظر: المصدر نفسه ،١/ ١٨٠ و:٢/ ٢٥٧.

٧٨- ينظر: المصدر نفسه ،١/ ٧٣، و١/ ١٦٥، و١/ ١٨٦، و٤/ ٤٧ .

٧٩- ينظر: المصدر نفسه ،١/ ٦.

٨٠- ينظر: لسان العرب، مادة بقل.

٨١- البيان والتبيين ،٢/ ١١.

٨٢- لسان العرب، مادة : حذذ.

٨٣- ينظر: البيان والتبيين ،١/ ٢٤٦.

٨٤- ينظر : المصدر نفسه،٤/ ٢٢.

٨٥- ينظر : المصدر نفسه،٢/ ١٩٢

٨٦- ينظر : الحيوان ،٧/ ١٦٤.

٨٧- ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص١٦٣.

المصادر والمراجع

١. **إبراهيم ، طه احمد** : -تاريخ النقد الأدبي عند العرب، منشورات دار الحكمة ، دمشق١٩٧٤م.

٢. **الأصفهاني، أبو الفرج**: -الأغاني، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٥م .

٣. **البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر**:- الفرق بين الفرق، تحقيق محمد زاهد الكوثري، مطبعة المعارف، القاهرة د.ت.

٤. **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر**:- البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هرون، منشورات الخانجي– القاهرة ١٩٧٥م.
- الحيوان، تحقيق عبد السلام هرون، منشورات الخانجي– القاهرة د.ت .

٥. **جعفر، د. نوري**: -الجوانب السايكولوجية في أدب الجاحظ، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨١م.

٦. **الحموي، ياقوت**: -معجم الأدباء، المطبعة الهندية، مصر١٩٣٥م .- ابن خلدون، عبد الرحمن ـ المقدمة، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٠م .

٧. **ضيف، د.شوقي**: -تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول ، الطبعة السادسة، دار المعارف بمصر٢٠٠٨م .
- الفن ومذاهبه في النثر العربي، الطبعة السادسة، دار المعارف بمصر١٩٧١م.

٨. **عباس، د. إحسان**:- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق، عمان١٩٨٦م.

٩. **الفاخوري، د. حنا**: -تاريخ الأدب العربي- المطبعة البوليسية-الطبعة السادسة، د .ت.

١٠. **ابن منظور**:- لسان العرب، دار الصياد للطباعة والنشر، بيروت ١٩٥٥م .